ميادين الخدمة الاجتماعية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

لا يتسع مجال الخدمة الاجتماعية في بلد ما بمقدار اتساعه في مصر. فلدينا من المشكلات القومية، وأمراض المجتمع، ووجوه النقص في مختلف فروع الحياة، ما لم يكد يتوافر مثله في بلد متمدن من بلاد العالم. والحكومة بما لديها من موارد محدودة في المال والرجال، ومع الواجبات الباهظة التكاليف التي ألقتها حديثاً على عاتقها مقومات الاستقلال ونصوص المعاهدة وشؤون الدفاع عن البلاد، والتي زاد من ثقلها نشوب هذه الحرب وما جرته في ذيولها من مشكلات وما ألقته على كاهل الدولة من تبعات في مختلف الشئون، أقول إن الحكومة بما لديها من موارد محدودة في المال والرجال، ومع هذه الواجبات الباهظة التكاليف، لا تستطيع أن تقوم بعشر معشار ما ينبغي القيام به بصدد الاصلاح الاجتماعي. فما بقي في هذا السبيل يقع على كاهل القادرين من الشعب: يقع على كاهل الشبيبة المتعلمة، ويقع على كاهل الجمعيات والهيئات، ويقع على كاهل الأغنياء من الأفراد: أي يدخل في نطاق ما جرت العادة بتسميته «شئون الخدمة الاجتماعية»

لدينا في مصر خمس مشكلات رئيسية تحول دون تقدمنا، وتمنعنا عن اللحاق بالأمم المتمدينة إذا نجحنا في حلها والتغلب على آثارها استقامت لنا الامور، وسرنا بخطى حثيثة نحو الحضارة والكمال. وهذه المشكلات مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، ومتأثر بعضها ببعض، ومترتب بعضها على بعض: إحداها مشكلة الجهل وثانيتها مشكلة الفقر وثالثتها مشكلة المرض ورابعتها مشكلة الترف وخامستها مشكلة الاختلال الديني والخلقي. ومن هذه المشاكل وما نجم عنها من آداء اه يتألف منهج واسع للإصلاح الاجتماعي. وفي سبيل حلها ينبغي أن يتجه نشاط الخدمة الاجتماعية، ويجند جميع قوى الشعب ولا سيما قوى الشبيبة المتعلمة والجمعيات والهيئات والاغنياء من الناس

مشكلة الجهل

أما مشكلة الجهل فتتمثل في مظهرين: الأمية من جهة، ونقص الثقافة من جهة أخرى. فالأمية لا تزال مستولية بشاشها على نسمة أعشار النساء وثلاثة أرباع الذكور من الشعب.

والجهل بالقراءة والكتابة يعوق الفرد عن الإحاطة بشئون الحياة ومعرفة واجباته نحو نفسه ونحو اسرته ونحو المجتمع ، ويقصر به عن إدراك حقوقه السياسية وعن الإلمام بشرائع بلاده وما تسنه الحكومة من قوانين ويمهد السبيل لاضطراب الحياة وفساد الأمن والوقوع في الجريمة

والحكومة ، مع ما بذلته من جهد ، لم تستطع في حدود ماليتها وما يحيط بها من أحوال أن تمحو الأمية إلا عن جزء يسير من أفراد الشعب . والخطة التي رسمتها بهذا الصدد لا تحقق محو الأمية محواً تاماً الا بعد زمن طويل . على أن التعليم الالزامي لا يطبق الا على الصغار في سن معينة . فيترك وراءه طوائف الزراع والصناع والعمال والباعة والخدم الذين لم يتح لهم في صغرهم تعلم القراءة والكتابة . ومن هذه الطوائف يتكون الآن القسم الاكبر من افراد الشعب

فمن أهم شئون الخدمة الاجتماعية العمل على محو الامية عن هذه الطوائف وعن الصغار الذين لا تتسع لهم الآن مدارس التعليم الإلزامي . ويقع هذا كله على عاتق الشبيبة المتعلمة وعلى عاتق الجمعيات والهيئات وعلى عاتق الأغنياء من الناس . وبلوغ هذه الغاية يتحقق عن طريق التعليم الجمعي ، وذلك بانشاء المدارس الشعبية الليلية في المدن والقرى وترغيب الأميين بمختلف الوسائل في الالتحاق بها . ويتحقق كذلك عن طريق التعليم الفردي ، فيتصل الطالب المتطوع في شئون الخدمة الاجتماعية ببعض الأميين ، ويعطي كلاً منهم على حدة مايشبه الدرس الخاص ، فاذا ما نجح في محو الأمية عنهم استبدل بهم آخرين .. وهكذا

وغني عن البيان أن قيام الشبان والفتيات من الطلبة والطالبات وغيرهم بهذا الواجب لا يكلفهم أكثر من تضحية بجزء يسير من أوقات فراغهم ، في مقابل ما يكتسبونه من رضا الله ورضا الشعب وإرضاء ضمائرهم وأدائهم لبعض ما يجب عليهم نحو مجتمعهم . هذا إلى أن مزاولتهم للتعليم ، واتصالهم بطبقات الشعب الدنيا ، وملاحظتهم لعقليات تختلف عن عقلياتهم ... كل ذلك وما إليه يزيد من إحاطتهم بشئون الحياة ، ويوسع نطاق معلوماتهم عن المجتمع ويعودهم الرفق والعطف والمثابرة ، ويدربهم على الامور العملية ، ويعدهم اعداداً صحيحاً لحياة المستقبل

هذا نحو المظهر الاول من مظاهر الجهل . اما المظهر الثاني فيتمثل في ضعف التفكير ونقص الثقافة ، وهذا المظهر منتشر في معظم افراد الطبقة الدنيا من الشعب ، سواء في ذلك الاميون منهم والملمون بمبادىء القراءة والكتابة . فطوائف الزراع والصناع والباعة والخدم ... كل أولئك يفتقرون نحو التفكير ، ونموهم أنواع كثيرة من الثقافة ، تنموهم الثقافة الاقتصادية والالمام بخير الوسائل لتنمية موارده وتنظيم استهلاكهم وتدبير امور معاشهم ... وما الى ذلك . وتنموهم الثقافة الصحية والاحاطة بطرق الوقاية من الامراض وعلاجها ، ووسائل الاسعافات الضرورية ، وما ينبغي ان يسيروا عليه في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم . وتنموهم الثقافة العائلية

والوقوف على خير الطرق لحياة الأسرة ، وتنظيم العلاقات بين أفرادها ، وتوزيع الأعمال عليهم ، ومراعاة حقوق كل منهم وواجباته ، وتربية الأطفال وما الى ذلك . وتموزهم الثقافة السياسية والاحاطة بالنظم التي تسير عليها الدولة بهذا الصدد ومعرفة العلاقات التي تربطها بما عداها من الدول ، والالمام بحقوقهم وواجباتهم حيال السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . وتموزهم الثقافة الدينية الصحيحة والوقوف على ما يوجبه الدين على الفرد حيال ربه وحيال نفسه وحيال أفراد أسرته وحيال مجتمعه وحيال جميع أفراد النوع الانساني . وتموزهم الثقافة التاريخية والاحاطة بشيء من ماضي بلادهم ومجدها التليد ، حتى يتكوّن لديهم الكبرياء الوطني والاعتزاز بقوميتهم وما الى ذلك من الصفات التي لا تستقيم بدونها حياة الشعوب . وتموزهم أنواع أخرى كثيرة من الثقافة

وعلاج هذا المظهر من الجهل أهم كثيراً في نظري من علاج الأمية . فالالمام بمبادىء القراءة والكتابة لا يفيد الفرد كثيراً في حياته ما دام ناقص الثقافة ضعيف التفكير . على حين أن تثقيفه من النواحي السابق ذكرها يرفع من شأنه ويزيد من صفات الانسانية لديه ، ويكسبه الحرص على أداء واجباته والاحتفاظ بحقوقه ، ويزوده بالقدرة على التغلب على صعوبات الحياة ، ويهذب طباعه وسلوكه ، ويولد الانسجام بين حياته الفردية وما يتطلبه المجتمع ، ويحقق له السعادة في مختلف فروع حياته . . . يكسبه جميع هذه المزايا حتى ولو كان جاهلاً بالقراءة والكتابة

وغني عن البيان أن الحكومة التي لم تستطع في حدود مالیتها وفي الظروف المحيطة بها ، أن تمحو الأمية الا عن جزء يسير من أفراد الشعب ، لا تستطيع من باب أولى أن تقوم وحدها بجميع ما يجب القيام به حيال تثقيفه

فمن أهم شئون الخدمة الاجتماعية العمل على نشر الثقافة بمختلف انواعها بين افراد الطبقات الدنيا من الشعب . وبقدر هذا كما قلنا على عاتق الشبيبة المتعلمة وعلى عاتق الجمعيات والهيئات وعلى عاتق الاغنياء من الناس . وبلوغ هذه الغاية يتحقق عن طريق الندوات التعليمية والارشادات الصحية وتنظيم محادثات ومحاضرات شعبية في المدن والقرى وانشاء المدارس الليلية في الحواضر والارياف . . . وعلم جرًا

وقيام الشباب والفتيات من الطلبة والطالبات وغيرهم بهذا الواجب لا يكلفهم أكثر من تضحية جزء من اوقات فراغهم . والتعبير بالتضحية امير غير دقيق . فالواقع انهم بذلك يستغلون اوقات فراغهم خير استغلال اذ يؤدون أهم ما يجب عليهم نحو مجتمعهم ، ويجنون من وراء ذلك فوائد كبيرة . فزاولتهم لشئون التثقيف واحتكاكهم بالطبقات الدنيا من الشعب ، وعلاجهم للفتيات تختلف عن غيابهم . . . كل ذلك وما اليه يزيد من بصرهم بشئون الحياة ، ويوسع دائرة

اعداكم ، ويخلق في نفوسهم عاطفة الرفق والعطف ، ويكسبهم قوة الصبر ، والثابرة ويجعلهم حريصين على الخير ميالين الى السكان ، ويعدهم إعداداً صحيحاً لحياتهم المستقبلة ، إذ يصبحون آباء وأمهات ورعاة مسؤولين عن رعاياهم

هذه هي المشكلة الاولى من مشكلاتنا الاجتماعية ، والعمل على تخفيف ويلاتها عن طريق الخدمة الاجتماعية أنشئت جماعات الرواد ، وقامت في هذا السبيل بمجهود جليل مشكورة ، وقطعت فيه مرحلة طيبة . فاذا كثرت هذه الجماعات وتعددت محلاتها في المدن والقرى ، وانضم اليها اكبر عدد ممكن من الشبيبة المتعلمة ، كبر الامل في التغلب على الجهل بمظاهره : مظهر الأمية ومظهر نقص الثقافة

مشكلة الفقر

أما المشكلة الثانية من مشكلاتنا الاجتماعية فهي مشكلة الفقر والفقر منتشر في كل بلاد العالم والفقراء في كل أمة أكبر عدداً من الاغنياء . غير ان هذه المشكلة قد ظهرت بمصر في صورة فاجعة لم تكد تظهر مثلها في أي بلد متمدن من بلاد العالم ، في صورة تنذر بعواقب وخيمة وشرور مستطيرة ان لم يتداركها المصلحون بتخفيف ويلاتها . فمعظم العائلات المصرية لا يزيد متوسط دخل العائلة فيها على جنيه واحد في الشهر . وهذا هو أقصى ما يمكن ان تصل اليه الاسرة في بلد متمدن . والفقر اذا وصل الى هذا الحد ، وانتشر بين هذا العدد الكبير من أفراد الشعب ، عاق الامة عن التقدم ، وساعد على انتشار الجهل والمرض ، ومهد السبيل لاضطراب الحياة ونزاع الطبقات وفساد الأمن وكثرة الجرائم والاعتداء على الحقوق والاخلال الديني والخلقي . وعلاج هذه المشكلة يقع معظمه على كاهل الحكومة لان أهم أسبابها يرجع الى فساد في نظم توزيع الثروة او فرض الضرائب على الاغنياء او صرف الاموال في وجوهها الصحيحة او إلى تسلط الزعامة الأرستقراطية واهمال الطبقات الدنيا وجميع هذه الاسباب وما اليها لا يمكن لغير الحكومة العمل على إزالتها

وعلى الرغم من ذلك لا يزال الميدان متسعاً في هذا السبيل أمام الخدمة الاجتماعية . فالجمعيات الخيرية والهيئات المختلفة وطبقات الاغنياء من الشعب يمكنها ان تقوم بشيء كثير في سبيل تخفيف ويلات الفقر وتحسين حال الفقراء ، والشبان المتعلمون والفتيات المتعلمات يستطيعون ان يضطلعوا بقسط غير يسير من هذا الواجب وخاصة عن طريق جمع الإحسان المنظم وإقامة الحفلات والاسواق الخيرية . وما يستطيع ان تقوم به الفتيات في هذه الناحية يفوق كثيراً ما يستطيع ان يقوم به الفتيان . فهن أقدر على جمع الاحسان وإثارة عواطف الرفق عند الاغنياء والقادرين

وهنّ أقدر على تنظيم الحفلات والاسواق الخيرية وعرض ما ينبغي عرضه فيها من أشغال يدوية وما اليها

مشكلة المرض

وثالثة المشكلات هي مشكلة المرض، وهي نتيجة لازمة للمشكلتين السابقتين : الجهل والفقر، ولأمر ثالث وهو عجز الحكومة او تقصيرها وتقصير الهيئات والجماعات والقادرين من الناس في القيام بما يجب عمله في هذا السبيل

وتبدو مشكلة المرض في مصر بشكل فاجع مروع، وفي صورة تنذر بعواقب وخيمة وشرور مستطيرة . فالبلهارسيا والانكلستوما وغيرهما من الامراض المتوطنة تفتك بالفلاحين فتكاً ذريعاً . وأمراض الاطفال لا تبقي الاّ على نسبة ضئيلة من المواليد ، حتى أصبح الاصل في الطفل القروي ان يموت ، والاستثناء ان يفلت من براثن الهلاك ، وهو لا يفلت منهُ الاّ بأعجوبة ويعيش في الغالب هزيل الجسم ، ضاوي القوى ، ضعيف الحركة ، كسولاً خاملاً ، لا يكاد يصلح لأداء واجب ، ولا تكاد تنتفع منه البلاد في شئون الدفاع وما اليها

وعلاج هذه المشكلة يقع بعضه على كاهل الحكومة . فمن أهم واجباتها تعميم المستشفيات والمصحات الثابتة والمتنقلة ، ومن واجباتها تذليل سبل العلاج لجميع أفراد الشعب وخاصة الفقراء منهم ، ومن واجباتها العمل على القضاء على الامراض المتوطنة ، ومن واجباتها سن القوانين الصحية بصدد الزواج والحمل والولادة وما الى ذلك . وقد قامت حكومتنا بقسط غير يسير من واجبها بهذا الصدد . وهي لا تستطيع في حدود مالياتها وما يحيط بها من ظروف في الوقت الحاضر أن تقوم بكل شيء في هذا السبيل . فما بقي يقع على كاهل القادرين من الشعب : يقع على كاهل الجمعيات والهيئات ، والاغنياء من الافراد ، والشبيبة المتعلمة ، أي يدخل في نطاق ما جرت العادة بتسميته « شئون الخدمة الاجتماعية »

وقد قام بعض الجمعيات وبعض الهيئات وطائفة من الاغنياء بشيء من واجبها بهذا الصدد ولكن لا يزال في هذا الميدان متسع كبير لاضعاف ما بذل فيه من جهود . والشبان المتعلمون والفتيات المتعلمات ، ولا سيما المشتغلون بالطب منهم ، يستطيعون أن يضطلعوا بقسط غير يسير من هذا الواجب ، وخاصة عن طريق الدعاية الصحية وارشاد العامة الى طرق الوقاية والعلاج ومساعدتهم على الاتصال بالاطباء ، وعن طريق الحاق المستشفيات والمصحات ، وعن طريق جمع الاحسان المنظم ، واقامة الحفلات والاسواق الخيرية وتنظيم الاسابيع الصحية كأسبوع الطفل وما الى ذلك

مشكلة الترف

وأما مشكلة الترف فتتمثل فيما يسود طبقات الاغنياء بمصر من الميل الى السرف والتبذير، وانفاق الاموال في غير وجهها الصحيح والانغماس في الملاذ والشهوات المشروع منها وغير المشروع، والمبالغة في تقليد الاوربيين وخاصة في القبيح من عاداتهم ؛ واحتقار الوقت ، وعدم تقدير قيمته ؛ وقتله في باطل الامور وسفاسفها ؛ وضعف الشعور بالواجب الوطني والاجتماعي وازدراء الطبقات الفقيرة وما الى ذلك

وهذه المشكلة لا تقل خطورة عن المشكلات السابقة ان لم تزد عنها . وعلاجها يتطلب كثيراً من الحزم والخلق والروية . ويقع بعضه على كاهل الحكومة نفسها ؛ وبعضه على كاهل الجمعيات والهيئات ، وبعضه على كاهل الشبيبة المتعلمة . ففي استطاعة الشبان المتعلمين والفتيات المتعلمات أن يستطيعوا بقسط غير يسير من هذا الواجب ، وخاصة عن طريق ترغيب الاغنياء من اعيان البلاد وغيرهم في الانضمام الى جمعياتهم أو رآستها أو الاشراف عليها ، وحملهم بطريق عملي على اعمال البر والعناية بالفقراء والاهتمام بشئون الطبقات الدنيا ، وشغل اوقات فراغهم بشئون الخدمة الاجتماعية ، وبث الدعاية النفية في نفوسهم عن طريق ممارسة اعمال الخير والاحسان ، مستخدمين في ذلك وسائل الاغراء التي تستخلب اغنياءنا ومترفينا كالاشادة باعمالهم ونشر اسمائهم في الصحف والثناء على جودهم ... وهلم جرًّا

الانحلال الخلقي والديني

والمشكلة الأخيرة هي مشكلة الانحلال الخلقي والديني . وهذه المشكلة ماشئة عن المشكلات السابقة . فهي في بعض مظاهرها نتيجة للجهل او الفقر او المرض ، وفي مظاهرها الاخرى نتيجة للترف . فخير علاج لها هو علاج المشكلات الاربع السابقة . وهذا العلاج — وان كان غير مباشر — أجدى كثيراً في نظري من علاجها بشكل مباشر عن طريق الوعظ والارشاد. فقلما أثر النصح في محو رذيلة أو غرس فضيلة

ولا يفوتني قبل ان اختم كلمتي ان أنوه بالجهود المشكورة الصامتة التي أخذت وزارة الشئون الاجتماعية تبذلها في هذا السبيل . فقد ألفت لجنة لبحث وجوه الخدمة الاجتماعية وتوجيه الشبان إلى الصالح منها ، وستظهر نتائج عملها قريباً ان شاء الله